أنا وضغط الدم

للأستاذ عباس حسان خضر

قضيت ماقضيت من حياتى — قبل أن تبدأ قصتى مع ضغط الدم — بعيداً عن الأطباء ، لم ألقهم فى مرض ألمّ بى إلا مرات معدودات . وذلك لعديد من الأسباب لا أريد أن أذكر منها إلا أننى حريص على العمل بالحكمة المأثورة : « الوقاية خير من العلاج »

ومهما كانت الأسباب فقد كنت بخير إلى أن لقيت صديقى فى الطريق وهو ذاهب إلى مكتب شركة من شركات التأمين على الحياة ليدفع قسطاً من المؤمن به على حياته ، وطلب منى أن أصحبه وقال لى : لم لا تؤمن أنت أيضاً على حياتك ؟ فقلت فى نفسى : حقاً لم لا أؤمن على حياتى ؟ إننى لا أدخر شيئاً ، وهذه قطع كبدى تمشى على الأرض ، ولا يملك أبوهم شبراً من أرض ...

وقال صديقى : على أنك إذا طلبت التأمين عهدت الشركة إلى طبيبها أن يفحصك فحصاً تاما ليتحقق سلامتك من جميع الأمراض ، فإذا كانت هذه السلامة اطمأننت على صحتك وجنيت فائدة التأمين ، وإلا عرفت داءك فتبادر إلى علاجه ؛ وسيسألك الطبيب عن الأمراض التى أصبت بها فى حياتك ، فلا تصدق وقل له : إنك لم تصب بأى مرض فى أى زمن . تصور أنى قلت له : لم أمرض إلا مرة واحدة فى حياتى ، إذ أصبت بحمى (الدنج) فجعلت الشركة تبحث عما عساه أن يكون لهذه الحمى من الآثار التى تقصر الأعمار ... وبعد البحث والدرس ، والأخذ والرد ، قبلت التأمين . قلت لصديقى : إنك — ولا شك — أصدق المؤمنين على حياتهم لدى هذه الشركة !

وتقدمت إلى الشركة بطلب التأمين على حياتى بألف جنيه ، على أن أدفع أقساطاً شهرية بضعة جنيهات ؛ وزعمت أنى لن أبالى بعد ذلك أن أموت فى أى وقت تاركا لأولادى ألف جنيه ! وكنت شديد الحذر من سيارات الخلفاء وما إليها من اللواهم التى تعج بها شوارع القاهرة ، وزعمت أيضاً أننى لن أكون كذلك بعد أن يتم عقد التأمين ...

واستدعتنى الشركة للفحص الطبى ، وليس يهمك أن تعلم أنى أخذت بنصيحة صديقى فى الكذب على الطبيب أو لم آخذ بها ، فقد حدث ما شغلنى عن ذلك ، وهو المقصود من هذه الحكاية ، فلنقصد إليه قصدا ... لفّ الطبيب على ذراعى قطعة من قماش أسود كثيف ، وأدار الآلة المتصلة بها ، فضغطت على ذراعى ، ونظر إلى دائرة بها مشير يتنقل بين أرقام ... ثم قال : عندك ارتفاع فى ضغط الدم !

ضغط الدم ... ! وما ضغط الدم ... ؟

لم يجب الطبيب ، لأنه لا يتكلم فى الصميم ، وإنما أيدى استعداده للعلاج .

ولكنى لم آت هنا للعلاج ... ولست أعرف هذا المرض ، ولا أحس له بأعراض ، وإنما أطلب التأمين على حياتى ... ولكن الشركة لا تؤمن هذه الحياة التى يتحيفها ضغط الدم ...

وذكرت قول صديقى : « ... وإلا عرفت داءك فتبادر إلى علاجه » ، ولكننى أصررت على تجاهل هذا الداء ، أما أولادى فإن كنت سبباً فى وجودهم فإن موجدهم الأصيل الذى يكفلنى ويكفلهم أقدر على كفالتهم بعدى ، وهو المستعان فى كل حال .

الميسور لأستاذ البلاغة فى الجامعة أن يتهم الشيخ عبد القاهر فى ذوقه فأظن أنه ليس من الميسور أن يتهم جريراً الشاعر . فاليه نسوق القصة التالية : يحكى أن جريراً قال : أنشدنى عدى (يعنى ابن الرقاع العاملى) : عرف الديار توهما فاعتادها .

فلما بلغ إلى قوله: (تزجى أغن كأن ابرة روقه) رحته وقلت قد وقع ، ما عساه يقول وهو أعرابى جلف جاف ؟ ! فلما قال : (قلم أصاب من الدواة مدادها) استحالت الرحمة حسداً . قال صاحب الايضاح : فهل كانت الرحمة فى الأولى والحسد فى الثانية إلا أنه رآه حين افتتح التشبيه قد ذكر ما لا يحضر له فى أول الفكر شبه ، وحين أتمه صادفه قد ظفر بأقرب صفة من أبعد موصوف .

وبعد . فهذا كلامهم وهذا كلامه ، وموعدنا المقال التالى .

على العمارى
مدرس بمعهد القاهرة

ولكن مالى أنتبه عند ما أسمع الناس يرددون كلمة « ضغط الدم » بين ارتفاعه وانخفاضه ؛ وأرى اهتمام بعضهم بقياسه ، ومعرفة درجته ومعالجته ... ؟ استرعى ذلك انتباهى . وأثار باطن الشعور الذى خلته انتنى عنى ؛ فقصدت أحد الأطباء ... ولفّ على ذراعى ذلك القماش الأسود ، وقاس ضغط دمى ، وسألنى عن سنى ، وقرر أن الضغط مرتفع إلى درجة لايحسن السكوت عليها .

ورحت أتناول الأدوية ، وسرت على (الرجيم) وكنت كلما أخذت دواء ، أو أكلت مسلوقا ، أو حرمت نفسى محذوراً ؛ أوحى إلىّ كل ذلك أننى حقاً مصاب بضغط الدم ، وكأن كل ذلك يأمرنى أمراً بأن أكون كذلك ، فيجب أن أستشعر ثقل الدماغ والصداع وفتور الجسم ، وارتخاء الأطراف ، فيجيئنى كل ذلك ومعه هموم الدنيا وسواد العيش . وكنت أحس كلما وطئت قدماى عتبة (عيادة الدكتور) أن الضغط يرتفع ، وإن كنت قد أوحيت إلى نفسى فى الطريق أن الأدوية و (الرجيم) قد أفادت فأذهبته ... فيقيس الطبيب ، وأعاود تعاطى الأدوية ، والخضوع (للرجيم) وهزل جسمى وضعف بدنى . وعجبت من أن حالتى تزداد سوءاً على مرّ الأيام ، مع العناية والدقة فى مراعاة مقتضيات العلاج ، ومع الحرمان التام من كل ما يزيد الضغط !

حرت فى الأمر ، فمرة أقول لعل المرض كان فى أطواره الأولى خفيفاً ، أما الآن فقد استفحل أمره حتى أعضل ، ولولا هذه المعالجة لأدى بى إلى الحالة التى خشيت شركة التأمين خسارتها فيها ، ومرة أقول لعل هذا الطبيب غير موفق ، فأغيره ولا يتغير الحال . وأخيراً قلت : ألم أكن قبل بخير ؟ فلم لا أرجع كما كنت ؟ وطرحت الدواء وخلصت طاعة (الرجيم) فغذيت جسمى باللحم والبيض ، ورويته بالخضر المطهية بالطماطم ، وعمرت دماغى (بالتقلية) فعادت روحى إلى بدنى ، وجعلت الحيوية تدب فى أوصالى ، وأقبلت على رياضتى البدنية التى كنت تركتها خيفة أن ينفجر القلب وتتمزق الشرايين ؛ فأشرقت نفسى ورأيت الدنيا مشرقة ؛ وكل شيء يبسم ويدعونى إلى مشاركته ؛ وأدركت ما كاد يفسد من أمورى ، فطابت نفسى بذلك وحمدت الله على هذا التوفيق . ولم أندم على تلك المحنة لأننى اعتبرتها تجربة استفدت منها ؛ إذ عرفت أن دائى من الحالة النفسية التى وقعت فيها ، والتى كانت تستشرى عند كل مرسوم من مراسيم العلاج إذ أفكر متسائلا : لم آخذ هذا ؟ ولم أدع ذاك ! وعرفت أيضاً أن دائى من ضعف بدنى لحرمانه التغذية والتقوية ، كما عرفت أن سواد عيشى كان من سواد قماش تلك الآلة التى يقيسون بها ضغط الدم .

ولكن لم تدم جدوى هذه العبرة طويلا ، فقد أوقعنى سوء الطالع مرة ثانية مع موظف فى شركة أخرى للتأمين ، من أولئك المنوط بهم جلب حرفاء للشركة لقاء جعل مقدر بنسبة مئوية من مقدار التأمين ، وأهم ما يتصف به هؤلاء اللباقة فى الحديث ، والقدرة على شرح فوائد التأمين والإقناع بضرورته . أكد لى أن صحتى جيدة ، وأنه لايبدو على مايدل على ضغط الدم ، وأن الضغط لايرتفع فى دم من هو فى تحافتى وفى مثل سنى . ورضيت أن أتقدم للتأمين مرة أخرى ... وما وضعت قدمى على عتبة طبيب الشركة حتى هممت بالرجوع لأنجو بدمى من أكدار أحسست أنها تتسرب إليه ، ولكننى أشفقت على الموظف الذى يدعونى إلى الدخول متلطفاً مبتسما ؛ فدخلت ، وتمت الطامة برؤية مقياس الضغط ذى القماش الأسود الكثيف ... وأظهر الطبيب استعداده للعلاج ... فخرجت وقد أضفت إلى ثبت المنغصات فكرة التأمين على الحياة ، وباعتبارى إنسانا إذا مسه الضر دعا الله إلى جنبه — تذكرت تلك الحكمة التى خطرت لى عقب رفض الشركة الأولى تأمين حياتى . فقلت : « أما أولادى فإن كنت سبباً فى وجودهم فإن موجدهم الأصيل الذى يكفلنى ويكفلهم — أقدر على كفالتهم بعدى » .

على أننى لم أدر تماماً أأنا حقاً مصاب بذلك الضغط ، وأن التفاوت بين الحالتين يرجع إلى تلك الأسباب من تركيز تفكيرى فيه كلما جرعت دواء أو أكلت مسلوقاً أو تجنبت محذوراً ، ومن الشعور الكريه الذى ينتابنى فى مدخلى إلى الطبيب ، واسوداد الدنيا أمام ناظرى حينما أبصر ذلك القماش الأسود ، ومن التفكير فى التأمين على الحياة ، إلى ما يجره كل هذا من الهم والحزن ونكد العيش ؛ فإذا نفت عنى إرادتى كلّ ذلك ،